الفصل السادس

الحضارة الغربية

- تمهيد
- **أولًا:** عوامل قيام الحضارات في الرؤية الغربية
- **ثانيًا:** عوامل سقوط الحضارات في الرؤية الغربية
- **ثالثًا:** النموذج الأول: ألبرت شفايتزر ومسئولية الفلسفة عن انهيار الحضارة
- **رابعًا: النموذج الثاني:** نظرية صدام الحضارات ونهايتهاعند صموئيل هنتنجتون (١٨ أبريل ١٩٢٧ - ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٨)
- **خامسًا: النموذج الثالث:** نظرية صدام الحضارات ونهايتها عند فرانسيس فوكوياما (ولد ٢٧ أكتوبر ١٩٥٢)

تمهيد

قامت الحضارة الغربية على الامتيازات التي مُنحت لأفرادها، مثل: الحريات العلمية، والفكرية، والحريات السياسية، والاقتصادية، والفنية، والثقافية، والاهتمام الكبير بالعلم والعلوم الحياتية، واحترام المواطنين، والحفاظ على كرامتهم، بتطبيق عادل للقانون المدني[1].

(١) غادة الحلايقة: ما هي الحضارة الغربية، موقع موضوع، ٢٤ يونيو ٢٠١٩.

أولًا
عوامل قيام الحضارات في الرؤية الغربية

كل حضارة تصطبغ في منهجها كله، وفي إنتاجها جميعه بلون الفكرة التي منها نشوؤها وتطورها، حتى أنه ليتكون من ذلك في كل حضارة فقه خاص بها يتمثل في منطق داخلي تتكون عليه بنيتها وتتحكم به سيرورتها انفعالًا بالفكرة التي نشأت منها، ويتمايز ذلك المنطق بين حضارة وأخرى، ومعروف لدى فلاسفة التاريخ والحضارة أنّ الحضارة التي تتمخض عن عقيدةٍ ما، يرتبط مصيرها إلى حد كبير بدوافع نشوئها، فإذا ضعف الدافع العقدي أو عانت المعطيات الحضارية من تقطعه وغيابه بهذه النسبة أو تلك فقدت قدرتها على النمو والاستمرار، وتفككت الأواصر التي تشد أجزاءها وتحركها صوب هدفها المرسوم[1].

فإذا أمعنا النظر في العوامل التي أنشأت الحضارة الغربية أمكننا استخلاص النقاط التالية:

أولًا: حصرت النظريات الغربية نفسها وهي تفسِّر نشوء الحضارات في عاملين يعودان للطبيعة والإنسان، ولا يمكن فهم انغلاق هذه النظريات على هذين البعدين، الإنسان والطبيعة، إلا بفهم الظروف والبيئة التي نشأت فيها تلك النظريات وهي - أي النظريات - التي شكَّلت التصوّر عن الحياة والكون والوجود ككل، حيث إنّ النظرة للوجود انبثقت من نظرية المعرفة في الفكر الغربي، ومن المعروف أن النظريات العامة عن الوجود في الفكر الغربي ترتد في أصولها الأولى والمنشئة لها إلى التراث اليوناني - الروماني الغارق في الوثنية والتعدّدية، ولقد نتج عن هذا التصور نزعات فلسفية مثل المادية والطبيعية، وهذه النزعات في مجملها كانت وليدة القول بمحورية الإنسان الفرد الصمد[2].

ولقد كان من نتائج انحصار الفلسفة الغربية في دراسة الواقع المحسوس أو عالم

(١) عبد الله محمد الأمين النعيم: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية- دراسة مقارنة، ص٦٩.

(٢) المرجع نفسه، ص٧١.

الشهادة تمركزها حول الذات الإنسانية والطبيعة، فلا غرو أن يُعتبر الجنس أو العرق هو العامل الأساس في إنشاء الحضارة، وأن يكون الجنس الأبيض هو منشئ الحضارة لما يتمتع به من خواص حدّدها واضعو تلك النظريات، وأن تدخل الطبيعة هي الأخرى كعامل في نشأة الحضارة، وأن ينشأ صراع بين الإنسان والطبيعة لتتفجر طاقات ذلك الإنسان الفرد الصمد.

وقد أدى هذا الصراع بين الإنسان والطبيعة في الفكر الغربي إلى ظاهرة الإفساد بديلًا للتعمير، حيث إنّ الإنسان في تعامله مع الكون يتحرك وفق تصور إيديولوجي، وذلك في نطاق تصوره للوجود عامة. ولعل ما رافق حياة بعض الناس من تأليه لعناصر الطبيعة منذ القدم إلى الآن يمثّل أجلى مظهر لعلاقة الإنسان العقدية بالكون، وبناءً على ذلك فإنّ البُعد العقدي للكون يعتبر عنصرًا أساسيًا في الحضارة من حيث نشوئها وتطورها أساسًا، ومن حيث صبغتها ومنحاها بعد ذلك. وذلك لأنّ الصُّورة التي يحملها الإنسان عن الكون من حيث مأتاه ومصيره، ومن حيث طبيعته وتركيبه، ومن حيث قيمته وعلاقته بالإنسان ستكون هي المحدِّدة لموقف الإنسان العملي من الكون التحامًا به واقتحامًا لمناكبه، أو ابتعادًا عنه وانكماشًا عن السَّعي فيه، واستعلاءً عليه وتسخيرًا لمنافعه أو تخُّوفًا منه وتذللًا له، وتاريخ الحضارات شاهد على ذلك[1].

ولقد رسم الإسلام تصوره للعلاقة بين الإنسان والعالم، وهي علاقة تقوم على الوئام والانسجام والتكامل والوفاق والتجانس والالتحام بين الإنسان والطبيعة، بين الجماعة المؤمنة والعالم، فما دامت قوى الطبيعة وطاقاتها قد سُخِّرت أساسًا لخدمة الإنسان ومساعدته على الرقي الحضاري وإعمار العالم فإنّ العلاقة بينهما ليست علاقة قتال وصراع وغزو وبغضاء إنما علاقة انسجام وتقابل وتواصل وتعاون وتكامل وتكشُّف وتنقيب... إنّ فكرة الصراع بين الإنسان والعالم نظرة غربية صرفة، وهي مهما وضعت في أطر فلسفات شاملة تبدو للوهلة الأولى منطقية ومبررة فإننا بمجرد التوغل في دقائقها ومنحنياتها سنعثر على منطق الصراع، الذي تنبني عليه معطياتها، صراعًا يضعه «هيجل» في عالم الفكر ويبرِّر به أي شوفينية يمارسها شعب أوربي متفوق لاستعباد وقتل الشعوب المستضعفة، ويضعه «ماركس» في ميدان التبدلات المادية ليبرِّر به أي مذبحة تمارسها طبقة ضد طبقة. والتصور

(١) عبدالله محمد الأمين النعيم: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية- دراسة مقارنة، ص٦٩. انظر: عبد الحميد النجار: الشهود الحضاري، ص١٢٣- ١٢٤.

الإسلامي على العكس من ذلك إذ يرى أنه ما دام الإنسان قد خُلق وفق صيغة تشتبك فيها قوى الروح والمادة فإنّ له أن ينطلق في نشاطاته من نقطة التوازن، الذي ينتفي فيه الصراع ويتحول الجهد الإنساني إلى سعي خلاّق من أجل التوحد والتكامل والانسجام. وأنه ما دام قوى العالم - من جهة أخرى - قد سُخِّرت لمهمة الإنسان الأرضية فإنّ علاقة الإنسان به ليست علاقة صراع واقتتال إنما هي محاولة الكشف والتنقيب والاندماج للوصول إلى أكبر قدر ممكن من التفاهم بين الإنسان والعالم بعد الكشف عن سننه ونواميسه الطبيعية[1].

إنّ مما لا جدال فيه في عصرنا الراهن أنّ الحضارة المعاصرة أفسدت البيئة الكونية؛ لأنّ علاقاتها بالكون تأسّست على فكرة الصراع والمغالبة دون استصحاب للقيم الأخلاقية فبرزت المشكلات المستجدة في العالم المعاصر من قبيل المشكلة البيئية، واستنفاد الموارد ومصادر الطاقة المخزونة، وتراكم النفايات، والتعاظم المتوالي لأسلحة الدمار الشامل والحروب المهلكة للحرث والنسل. وهذا الفساد هو نتيجة للسلوك الإنساني غير الرّاشد، يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١]، ويقول سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة:٦٤].

ثانيًا: تمّ استبعاد البعد الغيبي في عوامل قيام الحضارة الغربية فتعاملت الحضارة مع عالم الشهادة، واقتصر علمها وقوانينها وتمثلاتها للوجود على المفاهيم الوضعية القائمة على الصراع، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ النظريات الغربية عملت على تضخيم دور الإنسان بجعله مركزًا وإلهًا للكون، كما عملت الفلسفية الواقعية على تضخيم دور الطبيعة فألّهتها هي الأخرى. وهذا يعني أنّ الحضارة الغربية سعت وتسعى لتحقيق اللّذة والمنفعة للإنسان، أي إشباع غرائزه مع إهمال الجانب الروحي، فظهر تبعًا لذلك الخواء الروحي في العالم المعاصر وتعالت الصيحات المنذرة بالخطر[2].

ثالثًا: إنّ مقياس التفوق الحضاري لا يكمن في حجم الإنتاج الكمي بقدر ما يكمن في أخلاقية الجماعة المتحضّرة وسعيها لخدمة الأهداف الإنسانية الشاملة، وهذا ما لم تنتبه له الحضارة الغربية، إذ إنّها تتجاوز -حتى على مستوى الفكر والفلسفة- حدود الموضوعية

(١) عبد الله محمد الأمين النعيم: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية- دراسة مقارنة، ص٧٣.

(٢) عبد الله محمد الأمين النعيم: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية- دراسة مقارنة، ص٧٤.

الشاملة وتهبط كثيرًا عن أخلاقية الإنسان بما هو إنسان، فتحصر أهدافها ومعطياتها في نطاق دولة أو عرق معيّن كما هو الحال عند «هيجل»، أو طبقة معيَّنة كما هو عند «ماركس» ورفاقه، أو على أحسن حال في إطار وحدة حضارية معيّنة كما هو الحال عند «توينبي»[١].

رابعًا: وحيث إنّ الحضارة الغربية تتعامل مع المحسوس فقد استحكمت فيها قيم المنفعة واللّذة، ومن ثمّ فإنّ حركتها قائمة على فلسفة الصراع، ذلك أنّ فكرة البحث عن عدو كامنة في فلسفتها.

خامسًا: إنّ انفصال الحضارة عن الدِّين وتحرّرها من سلطانه أفضى ويفضي بها ولا بد إلى انحلال الأخلاق وانحطاطها، عاجلًا أو آجلًا، وقد استحالت الحياة في الغرب - نتيجة لإبعاد الدين - إلى عبثية، فتنامت على ساحتها مشكلات لا يرجى منها برء كانهيار الأسرة وانتشار المخدرات والزواج من ذات الجنس وغيرها من الأعراض، التي صارت تشكو منها المجتمعات الغربية[٢].

سادسًا: ولأنّ الحضارة الغربية أهملت الدين وتعاملت مع المحسوس وفقًا لمنهج المعرفة التجريبية فقد تعاملت مع الإنسان بما فيه من مشاعر بوصفه مادة، ومن ثمّ فقد انعكس ذلك على الواقع الإنساني، يقول «كاريل»: «إنّ الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب، لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أي معرفة بطبيعتنا الحقيقية إذ أنّها تولّدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات النّاس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرّغم من أنّها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا». أما «كولن ولسن» فإنه يقول: «وكنت أنظر لحضارتنا نظرتي إلى شيء رخيص تافه باعتبار أنها تمثّل انحطاط جميع المقاييس العقلية... انعدام الجانب الرُّوحي في حضارتنا المادية»[٣].

سابعًا: لا مخرج للحضارة الغربية من الانهيار والتدهور، الذي بدأت تستعظم أخطاره في نظر «البرت شفيتسر»، إلا بإيجاد نظرية كونية تسيِّر حركتها.

(١) المرجع نفسه، ص٧٤.

(٢) عبد الله محمد الأمين النعيم: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية- دراسة مقارنة، ص٧٥.

(٣) المرجع نفسه.

.انظر: ألكسيس كارليل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة، فريد أسعد شفيق، بيروت، دار المعارف، ص28

ثانيًا

عوامل سقوط الحضارات في الرؤية الغربية

تجمع معظم مذاهب التفسير الوضعي على القول بحتمية سقوط الحضارات، فـ«ماركس» يخضع حركة التاريخ، بدولها وحضاراتها وتجاربها، لحتمية تبدل وسائل الإنتاج وانعكاسه على الظروف، ويرى أن كل وضع تاريخي مآله الزوال بمجرد هذا التبدل الديناميكي «الحركي» الدائم، لكن ما يلبث «ماركس» أن يقع في تناقض أساس مع نظريته عندما يقرّر الدوام والثبات لمرحلة حكم الطبقة العاملة حيث لا زوال بعدها. أما «شبنجلر» و«توينبي» فيؤكدان حتمية السقوط كأمر لا مفر منه، غير أنّ «توينبي» يقع هو الآخر في تناقض حينما يؤكّد أنّ هناك أملًا في بقاء الحضارة الغربية المعاصرة بوجه الأعاصير، حيث إنه نظر إلى بقية الإشعاعات اللاهوتية الكامنة فيها فقرّر أزليتها؛ وذلك لأنّ كل مادة وكل وقود يتحول إلى إشعاع[١].

هذا يعني أن الجانب الاقتصادي يكتسب أهمية كبيرة في حياة أي دولة. وقد اهتمت الحضارة الغربية بفكرة أو نظرية الاقتصاد الوطني وخاصة في انجلترا. وهذه النظرية نظرية منهجية وليست تاريخية كونها معدومة الزمان وطموحها بهدف تقرير المنهج الواحد لتطبيق علم الإدارة ونتيجة لذلك واجهت فشلًا كاملًا كما كان في النظرية البورجوازية عن الحرب العالمية، ونبوءات النظرية البروليتارية عن بداية الاقتصاد السوفيتي وتفاعله[٢].

وقد أرجع توينبي سقوط الحضارة إلى ثلاثة أسباب هي:

١- ضعف القوة الخلاقة في الأقلية الموجهة وانقلابها إلى سلطة تعسفية.

٢- تخلي الأكثرية عن موالاة الأقلية الجديدة المسيطرة وكفّها عن محاكاتها.

---

(١) عبد الله محمد الأمين النعيم: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية- دراسة مقارنة، ص٧٦.

(٢) اشبنجلر، تدهور الحضارة الغربية، أحمد الشيباني، بيروت، مكتبة الحياة، ص٣٠٨- ٧٤٨.

٣- الانشقاق وضياع الوحدة في كيان المجتمع كله[١].

وفي دور انحلال الحضارات فإنّ الفساد يدب في أرواح الناس، ويطرأ على سلوكهم ومشاعرهم وحياتهم تغيير جذري، ويحل محل الصفات الباهرة والقوى المبدعة التي كانت تزخر بها ذواتهم في دور النمو الحضاري ثنائية من النزعات والمواقف العقيمة المتناقضة، ثنائية في السلوك تتقاذف نفوس الأفراد بين استسلامها المطلق لمشيئة المقادير الجارية وبين انضباطها انضباطًا شديدًا بالإرادة القاهرة، وثنائية في الشعور تتقاذف قلوب النّاس، وفي هذا الدور يتعرّى الفساد الروحي أيضًا عن فوضوية تعم الأخلاق والعادات، وانحطاط يسود الآداب والفنون واللغات، ومحاولات عقيمة للتوفيق بين مختلف الديانات والفلسفات. وتسعى الأقلية المسيطرة في حالات معينة إلى أن تفرض بالقوة على رعاياها فلسفة خاصة أو دينًا مختارًا ولكنها تخفق في محاولتها هذه باستثناء حالة شاذة تتمثل في الكيفية التي انتشرت بها الدعوة الإسلامية بين الأمم المغلوبة[٢].

وحتمية سقوط الحضارة الغربية ترجع إلى النظريات التي تأسست في ضوئها تلك الحضارة، التي ارتبطت بقدرات الإنسان والطبيعة، و من ثمّ فقد تحكمت تلك التفاسير في سيرورة الحضارة، كما تحكمت في نشوئها ابتداءً. وعلى الرغم من أنّ الحضارة المعاصرة تعيش مأزق تعاملها مع المحسوس واقتصارها على عالم الشهادة وعجزها عن الإجابة على الأسئلة الكليّة، إلا أنّ هناك من نظر إلى بقية الإشعاعات اللاهوتية الكامنة فيها فقرّر أنّ الحضارة الغربية باقية وأزلية، وذلك لأنّ كل مادة وكل وقود يتحوّل إلى إشعاع، أما بقية الحضارات فهي إما مهددة بالزوال والانقراض أو الذوبان في الحضارة الغربية[٣].

النموذج الأول: ألبرت شفايتزر ومسئولية الفلسفة عن انهيار الحضارة

كيف خدعنا أنفسنا عن الأحوال الحقيقية لحضارتنا

انهيار النظرة في العالم التي على أساسها قامت مثلنا

(١) عبد الله محمد الأمين النعيم: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية- دراسة مقارنة، ص٧٧.

(٢) عبد الله محمد الأمين النعيم: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية- دراسة مقارنة، ص٧٨.

(٣) المرجع نفسه.

انظر: ألكسيس كارليل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة، فريد أسعد شفيق، بيروت، دار المعارف، ص٢٨.

السطحية في التفكير الفلسفي الحديث[١].

نحن نعيش اليوم في ظل انهيار الحضارة. وهذا الوضع ليس نتيجة الحرب؛ إنما الحرب مجرد مظهر من مظاهره. ولقد تجمد الجو الروحي في وقائع فعلية ينعكس أثرها عليها انعكاسا له نتائج مدمرة من كل ناحية. وهذا التفاعل بين ما هو مادي وما هو روحي قد اتخذ طابعا مضرا كل الاضرار. إننا نمخر (نُبحر) بالسفينة في تيار مليء بالأمواج العاتية تحت شلال هائل، ولابد من مجهودات جبارة لإنقاذ السفينة. سفينة مثيرنا، من المجري الجانبي الخطير الذي سمحنا لها بالانطلاق فيه، ومن إعادتها إلى المجرى الرئيسي إن كان ثم أمل في ذلك أبدًا.

لقد انحرفنا عن مجرى الحضارة؛ لأننا لم نقم بالتفكير الجدي في معنى الحضارة. أجل قد ظهر عدد من المؤلفات عن الحضارات بعنوانات متباينة منذ نهاية القرن الماضي وأوائل هذا القرن، لكنها لم تفلح في ايضاح الأحوال الراهنة في حياتنا العقلية، وإنما اقتصرت على أصول الحضارة وتاريخها، فقدمت لنا خريطة بارزة للحضارة رسمت فيها الطرق التي سلكها الناس أو ابتدعوها، واقتادتنا خلال السهول والتلال التي يتألف منها مجرى التاريخ منذ عصر النهضة حتى القرن العشرين. وكانت انتصارًا للحاسة التاريخية عند أصحابها. والجماهير التي علمتها هذه المؤلفات امتلأت رضا لما أن أدركوا أن حضارتهم هي نتاج عضوي لعدة قرون من نشاط القوى الروحية والاجتماعية؛ لكن لم يقم أحد بوصف مضمون حياتنا الروحية واستقصائه؛ ولم يمتحن أحد قيمتها من ناحية نبل أفكارها وقدرتها على ايجاد تقدم حقيقي.

وهكذا عَبَرنا وصيد القرن العشرين ونحن مخدوعون عن حقيقة أنفسنا خداعا لم يبدده شيء. وكل ما كتب آنذاك عن حضارتنا كان يهدف إلى توكيد اعتقادنا بعلو قيمة هذه الحضارة. وكل من حاك الشك في صدره من ذاك كان ينظر إليه باستغراب. و كثير من أولئك الذين سلكوا طريق الخطأ توقفوا وعادوا إلى الطريق اللاحب من جديد، لأنهم كانوا يفزعون من طريق المائل بهم إلى جانب. وثمت آخرون استمروا في الطريق اللاحب، لكن في صمت: لقد حملهم ذكاؤهم وفاذ بصيرتهم على التزام العزلة.

---

(١) الفصل الأول من كتاب: ألبرت شفايتزر: فلسفة الحضارة، ترجمة، عبد الرحمن بدوي، مراجعة، زكي نجيب محمود، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر. ص١١: ١٩.

ومن الواضح الآن لكل ذي عينين أن الحضارة بسبيل الانتحار وما بقي منها لم يعد في أمان. إنها لا تزال قائمة لأنها لم تتعرض للضغط المدمر الذي طغى على التبعية، لكنها كالبقية بنيت على شفا جرف هار، ومن المحتمل أن يجرفها أي انهيار جديد.

لكن ما هي المقدمات إلى أفضت إلى ضياع القوة من القوى الباطنة للحضارة؟

إن عصر أصحاب الكشف والمذهب العقلي قد وضع مُثُلًا أخلاقية، تستند إلى العقل وتتعلق بنماء الإنسان الفرد إلى الرجولة الحقة، وبمكانته في المجتمع، وبالمشاكل المادية والروحية الناشئة عن المجتمع، وبالعلاقات القائمة بين الأمم المختلفة وما يتطلب ذلك من قيام إنسانية ينبغي لها أن تتحد في سعيها إلى الأهداف الروحية والأخلاقية العليا. وهذه المثل بدأت، في الفلسفة وفي التفكير العام، بالاتصال بالواقع وتغيير البيئة العامة. وفي خلال الأجيال الثلاثة أو الأربعة الماضية حدث من التقدم في الأفكار التي تقوم عليها الحضارة وفي تحقيقاتها المادية -ما جعل الناس يعتقدون أن عصر الحضارة الحقيقية قد أشرق فجره على العالم وأن التطور سيمضي قدما من غير توقف.

لكن في حوالي منتصف القرن التاسع عشر بدأ هذا التفاهم والتعاون المتبادل بين المثل الأخلاقية والحقيقية الواقعية يتداعي، وفي خلال العقود القليلة التالية اختفى شيئًا فشيئًا حتى انعدم نهائيًا. لقد أفلست الحضارة دون مقاومة ودون شكوى. وتخلفت أفكارها، وكأنها بلغت من الاعياء ما جعلها لا تستطيع السير معها. كيف حدث هذا؟

إن العامل الحاسم في إحداث هذه النتيجة هو انصراف الفلسفة عن القيام بواجبها.

لقد كانت الفلسفة هي التي تقود الأفكار وترشدنا خلال القرن الثامن عشر والشطر الأول من القرن التاسع عشر. كانت تهتم بالمسائل التي تتبدى للإنسانية في كل فترة، وتحمل فكر الإنسان المتمدين على إدامة النظر فيها. وكانت الفلسفة في ذلك العصر تتضمن في داخلها تفلسفًا أوليًا عن الإنسان والمجتمع والجنس والإنسانية والحضارة، أنتج بطريقة طبيعية تمامًا نوعًا من الفلسفة الشعبية الحية تهيمن على التفكير العام وتحافظ على الحماسة للحضارة.

لكن هذه النظرة الأخلاقية المتفائلة إلى الأشياء، والتي وضع أصحاب الكشف والمذهب العقلي فيها الأسس لتلك الفلسفة الشعبية السليمة، تقول إن هذه النظرة كانت

عاجزة مع مضي الزمن عن مواجهة النقد الذي وجهه إليها الفكر المجرد. فتوكيدها الساذج أثار الحفيظة ضدها. ولقد حاول كانط أن يزود البناء المتداعي بأسس جديدة، وأن يكيف النظرية العقلية إلى الأشياء وفقًا لمقتضيات نظرية أعمق في المعرفة، دون أن يجري أي تغيير في عناصرها الروحية الأساسية. وبين جيته وشلر وغيرهما من أبطال الفكر في ذلك العصر أن النزعة العقلية لم تكن فلسفة حقيقية بقدر ما كانت فلسفة شعبية، فنقدوها نقدًا فيه من المكر بقدر ما فيه من العطف؛ لكن لم يكن في وسعهم أن يضعوا مكان ما حطموه شيئًا جديدًا يمكن أن يسند الأفكار الشائعة عن الحضارة في ذلك العصر.

وفشته وهيجل وغيرهما من الفلاسفة وإن كانوا نقدوا النزعة العقلية فإنهم مجدوا مثلها الأخلاقية، وحاولوا وضع نظرة أخلاقية متفائلة مماثلة عن طريق المناهج النظرية، أعني بالمناقشة المنطقية الميتافيزيقية للوجود المجرد وتنميته إلى كون. لقد أفلحوا طوال ثلاثة أو أربعة عقود من السنين أن يخدعوا أنفسهم وأن يخدعوا غيرهم بهذا الوهم الذي زعموه خلاقًا ملهمًا، وأن يفسروا الحقيقة الواقعية لتتفق مع مصالح نظريتهم في الكون لكن العلوم الطبيعية كانت في تلك الأثناء تنمو وتزداد قوة، فانتقضت عليهم، وبحماسة شعبية للحقائق الواقعية دمرت مخلوقات خيالهم الرائعة.

ومنذ ذلك الوقت والأفكار الأخلاقية التي تقوم عليها الحضارة كانت تجوس أنحاء العالم فقيرة لا مأوى لها. ولم تتقدم نظرية في الكون لتسندها إلى أساس متين؛ فلم تظهر نظرية تستطيع أن تزعم لنفسها المتانة والمنطقية والأحكام الباطن. لقد انقضى عصر النزعة التوكيدية في الفلسفة، ولم يعترف بعد ذلك بشيء على أنه حق إلا العلم تبدو كنجوم ثابتة، بل نظر إليها على أنها تقوم على فروض، ولم تقدر أنها في مرتبة أعلى من مرتبة المذنبات.

ونفس السلاح الذي بطش بالنزعة التوكيدية في المعرفة المتصلة بالكون قد بطش في الوقت عينه بالصياغة التوكيدية للأفكار الروحية. لقد استعملت النزعة العقلية الساذجة، والنزعة العقلية النقدية عند كانط، والنزعة العقلية النظرية عند كبار فلاسفة القرن التاسع عشر، كلها على السواء استعملت العنف مع الحقيقة الواقعية على نحوين: فهي أولًا قد وضعت النظرات التي وصلت إليها بالفكر المجرد في مقام أعلى من حقائق العلم الواقعية؛ وهي ثانيًا قد دعت إلى طائفة من الأفكار الأخلاقية قصد بها أن تضع مكان العلاقات العديدة القائمة في الأفكار والبيئة المادية للإنسان علاقات أخرى جديدة. ولما تبين أن النوع الأول

من العنف كان خطأً أصبح مما يدعو إلى التساؤل: هل للنوع الثاني من المبررات ما ادعى حتى الآن. والمناهج المذهبية في الفكر، التي نظرت إلى العالم القائم على أنه مجرد مادة لإنتاج تخطيط نظري خالص لمستقبل أفضل، قد حلت محلها محاولات عاطفة لفهم الأصل التاريخي للأمور القائمة، مهدت لها فلسفة هيجل.

وبعقلية من هذا الطراز لم يكن من الممكن بعد المزج بين المثل الأخلاقية والحقيقة الواقعية. فقد أعوز التحرر من الأحكام السابقة الذي كان ذلك المزج يقتضيه، فحدث ضعف في المعتقدات التي كانت القوة الدافعة في الحضارة. وهكذا وضع حد لقهر العقائد الإنسانية والظروف التي بدونها لا يمكن عمل الحضارة الإصلاحي أن يتقدم، وهو قهر كان له ما يبرره، لأنه كان مرتبطًا بذلك القهر للواقع الذي لم يكن ثم ما يبرره. وهذا هو العنصر الأساس في التطور النفساني لحياتنا الروحية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

لقد أُطرحت النزعة العقلية؛ لكن ذهبت معها أيضًا المعتقدات المتفائلة المتعلقة بالمعنى الأخلاقي للكون وللإنسانية؛ والمجتمع والإنسان؛ تلك المعتقدات التي كانت وليدة تلك النزعة؛ على الرغم من أن الاعتقاد ظل قوى التأثير إلى حد أن أحدًا لم يتنبه للكارثة التي بدأت.

ولم تدرك الفلسفة أن قوة الأفكار المتعلقة بالحضارة والتي وكل إليها أمرها قد أصبحت أمرًا مشكوكًا فيه. فعند نهاية أحد المؤلفات الرائعة في تاريخ الفلسفة، وقد ظهر عند نهاية القرن التاسع عشر، عرفت الفلسفة بأنها العملية «التي بها يكتمل، خطوة فخطوة، وبوعي أوضح وآكد، الاعتقاد المتعلقة بقيمة الحضارة، وأن مهمة الفلسفة هي توكيد صدقها الكلي». لكن المؤلف نسي النقطة الأساسية، وهي أنه قد أتى حين من الدهر لم تقتصر الفلسفة فيه على اقناع نفسها بقيمة الحضارة، بل أرسلت اعتقاداتها على أنها أفكار مفيدة قصد بها إلى التأثير في التفكير العام، بينما حدث منذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعدًا أن استحالت هذه المعتقدات شيئًا فشيئًا إلى نوع من رأس المال غير المنتج.

لقد كانت الفلسفة ذات يوم عاملًا فعالًا في إنتاج معتقدات عامة عن الحضارة. أما الآن، وبعد الانهيار الذي حدث في منتصف القرن التاسع عشر، أصبحت هذه الفلسفة نفسها مجرد ساحب لأرباح الأسهم، مركزة كل نشاطها على ما استطاعت ادخاره بعيدًا عن هذا

العالم الواقعي. لقد أصبحت مجرد علم يستخلص النتائج التي وصلت إلها العلوم الطبيعة والعلوم التاريخية، ويستمد منها المادة اللازمة لوضع نظرية في الكون مقبلة، وبذلت نشاطها في مختلف فروع المعرفة واضعة هذا الهدف نصب عينيها. وفي نفس الوقت استغرقت شيئًا فشيئًا في دراسة ماضيها، حتى أصبحت الفلسفة عمليًا هي تاريخ الفلسفة. لقد غادرتها الروح المبدعة، وأصبحت خاوية من التفكير الحقيقي. لقد راحت تتأمل في النتائج التي وصلت إليها العلوم الجزئية، ولكنها فقدت القدرة في التفكير الأصيل.

لقد نظرت ظهريًا بحدب متواضع إلى النزعة العقلية التي مزقتها واطرحتها. افتخرت بأنها تجاوزت نطاق أفكار كانت kant، وبأن هيجل قد كشف لها عن المعنى الباطن في التاريخ، وبأنها تعمل اليوم في تعاطف وتعاون مع العلوم الطبيعية. لكن بالرغم من هذا كله، أصحبت أفقر من أشد النزعات العقلية فقرًا، لأنها تقوم بوظيفة الفلسفة مجازًا لا حقيقة، في الخيال لا في الواقع، وظيفتها التي طالما مارستها بحماسة شديدة فيما مضى. فالنزعة العقلية، برغم كل بساطتها، كانت فلسفة فعالة، أما الفلسفة فقد أصبحت الآن، رغم نفاذ بصيرتها، مجرد حذلقة فلسفية يقوم بها منحلون. ولئن كان لا يزال لها دورها في المدارس والجامعات، فإنه لم تعد لها رسالة تؤديها للعالم الكبير.

وعلى الرغم من كل اطلاعها فقد أصبحت غريبة عن العالم، ومشاكل الحياة التي شغلت الناس والفكر كله لم يعد لها محل في نشاطها. لقد أصبح طريقها بعيدًا عن الحياة الروحية العامة، وكما أنها لم تتلق منبهًا ودافعًا من هذه، فإنها لم تقدم شيئًا. فبعد أن رفضت الاهتمام بالمشاكل الأساسية لم يعد فيها عنصر أساسي يمكن أن يصبح فلسفة للشعب.

ومن هذا العجز نشأت كراهية كل تفلسف معقول تتميز به. لقد كانت الفلسفة الشعبية بالنسبة لها مجرد عرض قصد به العامة، فيه تبسيط، وبالتالي في مركز وضيع، عرض للنتائج التي وصلت إليها العلوم الجزئية فاستخلصتها ومزجت بينها في نظرية عن الكون مستقبلة. لقد كانت على غير وعي بكثير من الأشياء، أعني على غير وعي بأن تمت فلسفة شعبية تنشأ عن هذا العرض، وأنه من واجب الفلسفة أن تعني بالمسائل الباطنة الأصيلة التي يفكر فيها الأفراد والجماعات، أو يجب عليها أن تفكر فيها، وأن تطبق عليها مناهج أشمل وأعمق، ثم تعيدها إلى استعمال العام؛ وأخيرًا فإن قيمة أية فلسفة هي في النهاية أن تقاس بقدرتها، أو عجزها، عن أن تتحول بنفسها إلى فلسفة حية للشعب.

كل ما هو عميق هو أيضًا بسيط، ويمكن إنتاجه على هذا النحو إذا احتفظ بعلاقته بكل الحقيقة. وإنه حينئذ أمر مجرد يضمن لنفسه حياة متعددة الجوانب كلما اتصل بالوقائع.

وما كان هناك من تفكير مستطلع عن عامة الناس قد اضطر إذن إلى الذبول، لأن هذه الفلسفة رفضت الاعتراف به أو مساعدته. لقد وجد في مواجهته هوة عميقة لم يستطيع عبورها.

وكانت لدى الفلسفة وفرة من العملة الذهبية المسكوكة في الماضي؛ وتلك هي الفروض المتعلقة بنظرية في الكون تنمي فيما بعد التي ملأت خزائن الفلسفة بما يشبه الذهب غير المسبوك؛ لكن لم يكن لديها غذاء لتسكين غائلة الجوع الروحي في العصر الحاضر. لقد خدعت بثروتها، فأهملت غرس الأرض بمحاصيل مفيدة، فأسلمت العصر لمصيره، متجاهلة ما هو في من جوع.

ولم يكن ذنب الفلسفة أن الفكر المجرد لم يفلح أبدًا في بناء نظرية في الكون ذات طابع متفائل أخلاقي، على أساسها تقوم المثل التي تنشئ الحضارة - فتلك واقعة اتضحت لما أن تطور الفكر. وإنما أذنبت الفلسفة في حق هذ العصر بعدم اعترافها بهذه الواقعة، واصرارها على أوهامها، وكأن في ذلك ما يعين فعلًا على تقدم الحضارة.

إن المهمة الكبرى للفلسفة هي أن تكون دليلًا للعقل العام وحارسًا، وكان من واجبها في ظروف هذا العصر أن تعترف للدنيا بأن المثل الأخلاقية لم تعد تسندها أية نظرية عامة في الكون، بل هي متروكة لأنفسها، وعليها أن تشق طريقها في العالم بقوتها الذاتية. لقد كان ينبغي عليها أن تبين لنا أن نكافح من أجل المثل التي تقوم عليها حضارتنا. وكان ينبغي عليها أن تحاول أن تجعل لهذه المثل وجودًا مستقلًا بفضل قيمتها الباطنة وحقيقتها الذاتية، وبالتالي تحفظ لها حياتها ونشاطها دون أية مساعدة خارجية تأتيها من نظرية في الكون مناظرة. لقد كان ينبغي عليها ألا تألو جهدًا في توجيه اهتمام المثقفين وغير المثقفين معًا إلى مشكلة مثل الحضارة.

لكن الفلسفة تفلسفت في كل شيء إلا في الحضارة. مضت قدمًا لإقامة نظرية في الكون، وكأنها بهذه النظرية تستطيع أن تعيد بناء كل شيء، ولم تدرك أن هذه النظرية، حتى لو كانت كاملة، ستبني خارج التاريخ والعلم وتبعًا لهذا ستكون غير متفائلة وغير أخلاقية،

وستظل أبدًا «نظرية عاجزة في الكون» لن تقوى على بعث القوى الضرورية لوضع وتمكين مُثُل الحضارة.

إن الفلسفة لم تتفلسف في الحضارة إلا قليلًا حتى أنها لم تلحظ أنها هي والعصر الذي تعيش فيه يفقدانها شيئًا فشيئًا. إن الحارس الذي كان عليه أن يظل ساهرًا يقظًا في ساعة الخطر كان هو نفسه دائمًا، وكانت نتيجة هذا أننا لم نناضل أبدًا من أجل حضارتنا.

رابعًا

النموذج الثاني: نظرية صدام الحضارات ونهايتها عند صموئيل هنتنجتون (١٨ أبريل ١٩٢٧ - ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٨)

تمهيد:

آمن صموئيل هنتنجتون أن الحضارات تعيش في صدام أو صراع دائم ومستمر، وفي ذلك يقول روبرت جرين: «ظلَّ صانعو السياسات الأميركيَّة تائهين في البحث عن معالم ذلك النظام الجديد من دون العثور على أيَّة مؤشِّرَات ملموسة لها، بل فُوجئوا بلطمة الأحداث في البوسنة والصومال وكشمير وطاجيكستان ومناطق أخرى في العالم، ولم يتمكَّن هؤلاء من وضع استراتيجيَّة يُمكن اتِّباعها عند التعامل مع كلِّ حدثٍ من تلك الأحداث أو جميعها، ولذلك لجئوا إلى التحذير من حقبة حالكة، حقبة تسود فيها الفوضى والاضطرابات، ولقد وجد هؤلاء ضالَّتهم في نظريَّة صمويل هنتنجتون»[1].

نظرية صدام الحضارات:

ترتكز أطروحة صدام الحضارات على فرضية أساسية، وهي أن الثقافة أو الهوية الثقافية، والتي هي في أوسع معانيها الهوية الحضارية، هي التي تشكل نماذج التماسك والتفكك والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة. لذلك يرى هنتنجتون أن أكثر الصراعات انتشارًا وأهمية وخطورة لن تكون بين طبقات غنية وفقيرة، أو جماعات أخرى محددة على أسس اقتصادية، ولكن بين شعوب تنتمي إلى هويات ثقافية مختلفة؛ لأن عالم ما بعد الحرب الباردة - وفقًا لأطروحة هنتنجتون- يتكون من سبع أو ثمان حضارات، وتشكل تلك

(١) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات، بتاريخ: ١٥/ ٣/ ٢٠١٨. موقع قصة الإسلام.
https://www.islamstory.com/ar/artical/3408351

التماثلات والاختلافات الثقافية المصالح والتناقضات والتجمعات بين الدول[١].

كان هنتنجتون أبصرَ بالواقع وأكثر عمليَّة من فوكوياما، وكان أكثر صداميَّة كذلك، بل إنَّه وضع الأساس الفلسفي للصدام، ما جعل عمليَّة الصدام نفسها تكتسب نوعًا من الشرعيَّة.

يرى هنتنجتون في عالم ما بعد الحرب الباردة أنَّ الشعوب تبحث عن هويَّتها وتتعلَّق بها، كذلك رموز الهويَّة؛ مثل: الصليب والهلال وغطاء الرأس؛ إذ إنَّ الهويَّة الثقافيَّة هي الأهم بالنسبَّة إلى معظم الناس؛ ذلك أنَّها تُعَرِّفهم بأنفسهم وبأعدائهم وتُحَدِّد لهم رسالتهم ومعاركهم وأعداءهم في الحياة، وإذًا فعالم ما بعد الحرب الباردة هو عالمٌ منقسمٌ إلى «حضارات»، عامل التقسيم فيه هو «الهويَّة الثقافيَّة». هذه هي خلاصة مدخل كتابه «صدام الحضارات» الذي قَسَّمه إلى خمسة أبواب[٢].

ناقش في الباب الأوَّل ذلك الشيء المستجدَّ، وهو وجود أقطاب وحضارات متعدِّدَة تصنع «ثقافة كونيَّة متعدِّدَة الأقطاب»؛ ففي القديم لم يكن هذا ليحدث لانقطاع الاتصالات بين الحضارات، ومنذ عام ١٥٠٠م كانت «السياسيَّة الكونيَّة» ذات قطبين (بريطانيا / فرنسا - النمسا / بروسيا - أميركا / الاتحاد السوفيتي).

وهو يقول: إنَّه لا بُدَّ للعالم أن يتشكَّل وَفق العوامل الثقافيَّة والحضاريَّة، فالدول التي تُحاول جمع الاختلافات الثقافيَّة تحت سلطةٍ واحدةٍ تنهار كما في الاتحاد السوفيتي والاتحاد اليوغوسلافي، أو تتعرَّض لتوتُّر شديدٍ ودائمٍ كما في السودان والهند، بينما الدول «التي بينها صلات قربى ثقافيَّة» ناجحة سياسيًّا واقتصاديًّا؛ ولذا فخطُّ الصراع الحضاري العالمي الآن هو الخطُّ الفاصل بين الشعوب الغربيَّة من جهة، وبين الشعوب الإسلاميَّة والأرثوذكسيَّة من جهةٍ أخرى، صحيحٌ أنَّه يُمكن للثقافات والحضارات أن تتطوَّر وتُنتج أنظمة سياسيَّة واقتصاديَّة، لكن تظلُّ الاختلافات بين الحضارات ذات جذورٍ عميقة؛ فالتطوُّر الاقتصادي في آسيا له جذورٌ في الثقافات الآسيويَّة!، وفشل الديمقراطيَّة في العالم الإسلامي راجعٌ إلى

(١) محمد عجلان: كل ما تريد معرفته عن نظرية «صدام الحضارات»، بتاريخ: ٢٤/ ١١/ ٢٠١٦. موقع المكتبة العامة. https://maktaba-amma.com/?p=4570

(٢) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.
https://www.islamstory.com/ar/artical/3408351

الثقافة الإسلاميَّة! وبينما تتقدَّم الشعوب المسيحيَّة الغربيَّة سياسيًّا واقتصاديًّا فإنَّ المسيحية الأرثوذكسيَّة لا يبدو تقدُّمها مؤكدًا[١].

ويرفض هنتنجتون الوهم القائل بإمكانيَّة الوصول إلى عالمٍ واحدٍ تحكمه ثقافةٌ واحدة، فهو يرفض مقولة فوكوياما عن «نهاية التاريخ» وسيادة الليبراليَّة كأسلوب عالمي في الحكم، كما يُؤَكِّد على فشل نمط التحديث الغربي في جعل المجتمعات غربيَّة.

ويُناقش في الباب الثاني تدهور الغرب وتناقص تأثيره من بعد مرحلة السيطرة الكاملة، التي استمرَّت في القرنين السابقين، بالشواهد التي تُؤَكِّدها الأرقام عن التراجع في النفوذ والأرض والاقتصاد، في مقابل النموِّ المتزايد لدى الحضارات الأخرى بشريًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا وعلميًّا، لا سيَّما الهند والصين، و«الانفجار» السكاني الإسلامي، كل هذا يُضَيِّق الفجوة بين الغرب وغيره[٢].

كذلك نمو الثقافات المحليَّة في مقابل انحسار التأثر بالغرب، واتخاذ الجامعات اللغات المحليَّة في التدريس إذ لم تَعُدْ محتاجة إلى ما اضطرَّ إليه الجيل الأوَّل من احتكاكٍ بالغرب ليُنشئوا هذه الجامعات، ثُمَّ إنَّ الجيل الثاني تمرَّد على الجيل الأوَّل المتأثِّر بالغرب، بل حتى الجيل الأوَّل ظهر منهم مَنِ استطاع أن يستوعب الغرب ويتمرَّد عليه ويتبنَّى الهويَّة المحليَّة، والحكومات الموالية للغرب هي دائمًا عرضةٌ للانقلاب عليها، وحين تُطَبَّق الديمقراطيَّة يصل المتمرِّدون على الغرب إلى السلطة[٣].

الحضارات غير الغربيَّة تُؤَكِّد على هويَّتها، لا يُفَكِّر المسلمون في «تحديث الإسلام»، وإنَّما في «أسلمة الحداثة»، كذلك في الكونفوشيوسيَّة، وفي الهند، بل في الاتحاد السوفيتي الذي -بعدما كان معقل الشيوعيَّة- يجتاحه مدٌّ دينيٌّ كبير، هذه الصحوات -بحسب هنتنجتون- هي ردُّ فعلٍ على التغريب، وأطلق عليها مصطلح «ثأر الله»[٤].

وباعتباره مخطِّطًا استراتيجيًّا، فهو لم يقف عند حدِّ التحليل، بل حدَّد مناطق الخطر

(١) راغب السرجاني: مرجع سابق.
(٢) راغب السرجاني: مرجع سابق.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

والمشكلة، أو قُلْ: بؤرة الصراع القادمة. وقد انحصر هذا لدى هنتنجتون في الحضارتين الآسيويَّة والإسلاميَّة: أمَّا الآسيويَّة؛ فللنموِّ الاقتصادي الكبير الذي حقَّقُوه دون أن يتغرَّبُوا، بل حقَّقُوه بعد زوال الاستعمار الغربي، ما يجعلهم يُوقنون بعدم الحاجة إلى التغرُّب، وأمَّا الإسلاميَّة؛ فلأنَّ المسلمين -وهم أعداد غفيرة تُمَثِّل خمس العالم- تجتاحهم صحوة إسلاميَّة كبرى، حتى لقد أصبح فشل الليبراليَّة ظاهرةً متكرِّرةً في المجتمعات الإسلاميَّة. والمؤشِّر الأظهر على ثورة قادمة هو تلك الزيادة الرهيبة في أعداد المسلمين لا سيَّما الشباب، ودائمًا ما ارتبطت الثورات بزيادة طبقة الشباب في المجتمع[١].

وفي الجزء الثالث يُريد -لا أقول يُناقش ولا يستعرض، بل يُريد ويعتصر الْمَشَاهد عصرًا ويمتصُّ الأدلة امتصاصًا لتُؤَيِّد رؤيته- للغرب أن يصنع النظام العالمي الجديد بالاستناد إلى اشتراكه في «علاقات قربى ثقافيَّة» (انظر الاعتصار) ويجتمع حول دولة المركز القائدة في حضارته (أميركا)؛ وذلك ضروريٌّ للغرب؛ إذ إنَّ الصراعات لن تنتهي، فلا المسلمون والهندوس يستطيعون الاتفاق على بناء مسجدٍ أو معبد، ولا الفلسطينيُّون والصهاينة يُمكنهم أن يتوصَّلوا إلى حلولٍ مرضية للطرفين، كذلك في كوسوفا وألبانيا، ذلك أنَّ الصراعات المرتبطة بالهويَّة لا تقبل الحلول الوسط، إمَّا نعم وإمَّا لا، لا يمكن لفرنسا أن تسمح بارتداء المسلمات الزيَّ الإسلامي في المدرسة، كما لن تقبل المسلمة أن تلبس ثوبين أحدهما للمدرسة والآخر لفترة الصيف[٢].

ثُمَّ -يُضيف هنتنجتون- إنَّ الكره شيءٌ إنساني، لا بُدَّ من وجود كرهٍ، وإذًا فلا بُدَّ من وجود الآخر، لا بُدَّ لتعريف النفس من وجود أعداء، وإذا اختفى عدوٌّ فلا بُدَّ من صناعة عدوٍّ آخر، وهذا يتمُّ في عالم اليوم بناءً على الصيغة الحضاريَّة؛ لأنَّه حتى القرب المكاني مع الاختلاف الثقافي لا يُنتج تعاونًا متينًا معتمدًا على الثقة[٣].

وفي الجزء الرابع يَنْهَى الغرب عن محاولاته صُنع حضارة عالميَّة؛ لأنَّ هذا يضعه في توتُّرٍ مستمرٍّ مع الحضارات الأخرى، «وأخطرها الإسلام والصين»، كما أنَّ هذه المحاولات

(١) المرجع نفسه.

(٢) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

(٣) المرجع نفسه.

ستُؤَدِّي إلى «تجمُّع الدول المتقاربة» أمام التهديد الحضاري الغربي، بما سيُؤَدِّي إلى تصعيدٍ أوسع وحروبٍ وجهودٍ أكبر[١].

وفي الجزء الخامس يرسم خريطة طريقٍ لتكتُّل الغرب الحضاري، فعلى الأميركيِّين أن يُؤَكِّدوا على هويَّتهم الغربيَّة، وعلى الغربيِّين أن يُؤمنوا بأنَّ حضارتهم حضارةٌ فريدةٌ وليست عامَّة (لا يُمكن تعميمها)[٢].

مصلحة ذاتية لا رؤية فلسفية

لكي يصنع هنتنجتون نظريَّته، ويُدلِّل عليها استخلص بعض الصفات «المميِّزة» للغرب، ولم يُمانع في أن كلَّ صفةٍ من هذه الصفات إنَّما يشترك فيها الغرب مع حضارةٍ أخرى، غير أنَّ اجتماعها معًا في توليفةٍ واحدةٍ هو ما «يُميِّز» الغرب، الثغرة الكبرى أنَّ هذه السمات المميِّزة إنَّما ترجع لعصر النهضة الغربيَّة الذي بدأ في إيطاليا، فهو -إذًا- غير مترسِّخٍ ولا متجذِّرٍ في تاريخ الإنسان الأوربي.

إنَّ هنتنجتون لم يكن فيلسوفًا أو باحثًا نزيهًا حين كان يتحدَّث عن صراع الحضارات، بل هو «مخطِّط استراتيجي»؛ أي: إنَّه لم يبحث عن «الحقيقة» أو عن «هدف إنساني»؛ بل انصبَّ تركيزه على البحث عن نظريَّة تستفيد منها الولايات المتحدة الأميركيَّة في تحقيق مصالحها الذاتيَّة الآنيَّة الأنانيَّة بغضِّ النظر عن أيِّ اعتبارٍ آخر. وأوضح دليل على هذا ما كتبه هنتنجتون في مقاله بعدد أكتوبر ١٩٩٧م من مجلة «الشئون الخارجيَّة»، الذي عَبَّر فيه عن قلقه الكبير من أنّ المجتمع الأميركي متعدِّد ثقافيًّا، بما يُشير إلى أنَّ التناقضات الثقافيَّة ستُؤَدِّي إلى السقوط؛ لذا فلا بُدَّ من البحث عن شيءٍ يُوَحِّد الشعب الأميركي ويشغله عن تناقضاته الداخليَّة؛ ولذا فهو يأسف أنَّه لا يُوجد عدوٌّ خارجيٌّ لأميركا في هذه اللحظة؛ فالعالم الإسلامي ضعيفٌ ومشتَّت، والصين لا تبلغ أن تكون عدوًّا في هذه اللحظة. وإذًا فما العمل؟

هنا يجيب هنتنجتون هذه الإجابة المتوحشة المعبِّرة عن مستعمرٍ انتهازيٍّ لا يهمُّه إلَّا مصلحته الشخصيَّة الأنانيَّة الآنيَّة العاجلة فيقول: «نحن بالأحرى في حاجةٍ للبحث عن

(١) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

(٢) المرجع نفسه.

أهداف لاستخدام القوَّة الأميركيَّة للقيام بدورها في العالم، والخطر هو فَقْدُ الهيمنة الفعليَّة، والمصلحةُ القوميَّةُ هي القمع القومي!، وهذه فيما يبدو هي المصلحة القوميَّة الوحيدة التي يرغب الشعب الأميركي في دعمها في هذا الوقت من تاريخهم»[١].

خطورة النظرية:

خطورة هذه النظريَّة في أنَّها نابعةٌ من رجلٍ كان يُؤَثِّر في السياسة الخارجيَّة الأميركيَّة، فتحوَّلت النظريَّة بنفسها إلى أفعال، أو حتى إلى مبرِّر لهذه الأفعال وغطاء لها، ومن الخطورة -أيضًا- أنَّها جاءت في اللحظة المتفائلة التي انهار فيها المعسكر الشيوعي فَكَثُر فيها الحديث عن «السلام الدولي»، وعن «النظام الدولي الجديد»، وعن «الشرعيَّة الدوليَّة»... وما إلى ذلك من مصطلحات تحمل ثقافة التعايش، جاءت لتُهَيِّئَ العالم الغربي إلى عداءٍ حتميٍّ مستقبليٍّ مع أعداء جدد، فترشّح الإسلام والصين[٢].

فالمشكلة في نظريَّة هنتنجتون ليست في توقُّع الصدام بين الحضارات بقدر ما هي في تهيئة النفس لقبول الصراع، بل الدعوة إلى الصراع، وليس هذا فحسب، بل إنَّها تستنتج عبر مغالطات كثيرة أنَّ الإسلام صدامي بطبيعته، وأنَّ على الغرب أن يتوقَّع منه الصدام.

وهو يُدَلِّل على صداميَّة الإسلام بأنَّ حدود العالم الإسلامي حدود دمويَّة، ولو أنَّه توقَّف وسأل مَن المعتدِي ومَن المعتدَى عليه عند هذه الحدود؟ ومَنِ الذي جعلها دمويَّة؟ فلربَّما كان له رأيٌ آخر إن كان حقًّا نزيهًا متجرِّدًا للمعرفة[٣].

يرى هنتنجتون أنه وحتى سقوط جدار برلين كانت الأمور أكثر وضوحًا، حيث كانت ثمة مواجهة بين قوتين عظميين في كل المجالات، لكن دون الدخول في حرب مباشرة؛ إلا أن الوضع تغير مع انتهاء الحرب الباردة. ويؤكد على أنه منذ انتهاء الصراع بين تلك القوتين لن تكون العوامل الأيديولوجية والاقتصادية هي المصدر الأساسي للصراع، لكنه سيكون صراعًا

(١) صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة، طلعت الشايب، تقديم، صلاح قنصوة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، ص٢٦، ٢٧. نقلًا عن: راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

(٢) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

(٣) صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ص٤١٦، نقلاً عن: راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

قائمًا على أساس الاختلافات الثقافية. فالصراعات الرئيسية في السياسة العالمية ستحدث بين أمم وجماعات متمايزة من حيث التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد، خاصة الدين[١].

يقول هنتنجتون: «يقوم افتراضي على أن المصدر الأساسي للصراع في هذا العالم الجديد لن يكون أيديولوجيًا أو اقتصاديًا في الأساس، فالتباينات بين الجنس البشري والمصدر المحوري للصراع ستكون ثقافية، وستظل الدول القومية أكثر الوحدات الفاعلة في الشئون الدولية، غير أن الصراعات الأساسية في السياسة الدولية ستقع بين دول وجماعات صاحبة حضارات مختلفة. وسيهيمن صراع الحضارات على السياسة الدولية، وستكون الفوارق الفاصلة بين الحضارات بمثابة خطوط القتال في المستقبل[٢].

ومن ثغرات النظريَّة -أيضًا- تبسيط موضوع الصراع وجعله «ثقافيًّا» فقط، مهملًا عوامل أخرى تُنتج صراعات، وخاصَّةً مع طغيان المادة وبالتالي النظر إلى العوامل الاقتصاديَّة، ولا شكَّ أنَّ العوامل الثقافيَّة مهمَّة في موضوع الصدام بين الشعوب، لكنَّها ليست العامل الوحيد؛ فمن ضمن ما وقع فيه من تناقضات ما رآه من «تحالف إسلامي كونفوشيوسي» في مواجهة الغرب في مجال التسليح وحقوق الإنسان، فالناظر إلى الثقافة فقط سيرى تباعد ما بين هاتين الثقافتين، ولكن الأَوْلى أن يُفَسَّر هذا في إطار «المصلحة المشتركة»، ولو أنَّنا أحصينا المرَّات التي تمَّ فيها استيراد السلاح فسنجد أنَّ العالم الإسلامي يستورد الكميَّة الأكبر من مخزونه التسلُّحي من العالم الغربي، فأين نذهب بالعامل الثقافي في كلِّ هذا؟[٣].

حتى تقسيمه للحضارة على اعتبار العامل الثقافي أمرٌ لا يرتفع عن الشكِّ، كما أنَّه ليس أمرًا مطردًا ولا مستويًا في تقسيمه هذا، فهو يُقَسِّم على أُسس متباينة، فتارةً يستخدم الدين (الحضارة الإسلاميَّة)، وتارةً يستخدم العرق (الحضارة الصينيَّة)، وتارةً يستخدم الجغرافيا (الحضارة الهنديَّة)!![٤]

(١) محمد عجلان: كل ما تريد معرفته عن نظرية «صدام الحضارات».

(٢) المرجع نفسه، انظر: صمويل هنتنجتون: الإسلام والغرب، آفاق الصدام، ترجمة مجدي شرشر، ط١ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥) ص: ٥.

(٣) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

(٤) المرجع نفسه.

لكن حقيقة التقسيم أنَّه نظر إلى القوى الحاليَّة، واعتبر كلَّ قوَّةٍ حضارةً منفصلة، ولا نتوقَّع أن لو كانت اليابان ضعيفة أن يُفردها كحضارةٍ من بين تقسيمته للحضارات[١].

كذلك بدا هنتنجتون غافلًا تمامًا في تقسيمته للحضارات عن دور الدولة، والواقع أنَّ الدول والكيانات السياسيَّة تبحث عن مصالحها الذاتيَّة والعاجلة بأكثر من بحثها عن المصلحة الحضاريَّة، والحقُّ أنَّ أيَّ تحليلٍ يُهمل عامل «المصلحة المشتركة» في تتبُّعه لسياسات الدولة إنَّما هو تحليلٌ ناقص[٢].

ومع ذلك فنحن نقول: إنَّ المصلحة الحضاريَّة كثيرًا ما تكون فاعلةً في تفسير بعض التوجُّهات للدول والكيانات السياسيَّة، لا سيَّما لدى المتديِّنين والمتمسِّكين بالهويَّة والخصوصيَّات الثقافيَّة؛ ذلك أنَّ هؤلاء قد يتصارعون من أجل المصلحة الحضاريَّة، حتى لو تعارض مع مصالحهم الذاتيَّة والعاجلة، يستوي في هذا المتديِّنون في كلِّ دين: المسلمون، اليمين المسيحي، اليهود الأرثوذكس، وكذلك أصحاب الديانات الوثنيَّة، ولعلَّنا نرى ذلك في وقوف اليمين الأميركي البروتستانتي بكلِّ قوَّةٍ خلف اليهود منذ إقامة وطنٍ قوميٍّ لهم في فلسطين حتى هذه اللحظة، خاصَّة وأنَّ هذا الوقوف قد يتعارض في كثيرٍ من اللحظات مع المصلحة الأميركيَّة، إلاَّ أنَّ المنطلق العقدي المؤمن بعودة المسيح مرَّةً أخرى بشروطٍ يُحَقِّقُهَا وجود الكيان الصهيوني يعلو فوق أيِّ منطلقٍ آخر[٣].

من المؤسف أنَّ هنتنجتون ينظر إلى التاريخ البشري من باب الصراع والصدام؛ فهو لا يرى التفاعلات الحضاريَّة الأخرى: العلميَّة والثقافيَّة والاقتصاديَّة؛ بل يرى الصراع فقط، ثُمَّ إنَّه يُعَمِّقه ويُرَسِّخه ويجعله من «ضرورات الحياة» ومن «قوانين الطبيعة»؛ ومن ثَمَّ فإنَّ الضرورة المترتبة على هذا هو أن «تأكل قبل أن تُؤكل»[٤].

يستشهد هنتنجتون بفقرة من رواية ديبون «البحيرة الميِّتة» تقول: «لا يُمكن أن يكون هناك أصدقاء حقيقيُّون دون أعداء حقيقيِّين، إن لم نكره ما ليس نحن، فلن يُمكننا أن نحبَّ

(١) المرجع نفسه.
(٢) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) المرجع نفسه.

ما هو نحن، تلك هي الحقائق القديمة التي نُعيد اكتشافها بألمٍ بعد قرنٍ أو أكثر من النفاق العاطفي، والذين يُنكرونها إنما يُنكرون أسرتهم وتراثهم الثقافي وحق الميلاد، إنَّهم يُنكرون ذواتهم نفسها، ولن يُعفى عنهم ببساطة»[١].

وهذه النظرة السوداء للإنسان لا بُدَّ أن تُنتج الكوارث، وكان الأَوْلى به أن يقول: إنَّ الحبَّ مشتركٌ إنسانيٌّ عام، وأنَّ الإنسان لكي يجد نفسه ويسعد حياته لا بُدَّ له من أصدقاء، وليس أعداء.

هذه المقولة نشرها الإعلام الغربي بكثافة، ومن المعروف أنَّ القارئ الغربي ذو ثقافةٍ محدودة، فإذا قامت مثل هذه النظريَّة بشحن هذا القارئ ضدَّ الحضارات الأخرى وتحفيزه للصدام، فإنَّ ذلك واقعٌ لا محالة، المثير في الأمر أنَّ هنتنجتون حشد نظريَّته بأدلَّةٍ مغلوطةٍ تُركِّز على نقاط التصادم، مهملًا عن عمدٍ نقاط التعايش[٢].

النظرية وإثارة الفزع (صناعة العدو):

ومن الواضح في النظريَّة اعتمادها على التضخيم والتهويل لإثارة الفزع، ومن ثَمَّ يكون هناك مبرِّرٌ للصدام المروِّع، وهذه -في الحقيقة- رؤية يُفَضِّلها الكثير من السياسيِّين في الدول العسكريَّة، كما كان في الاتحاد السوفيتي والعراق وكوريا الشماليَّة[٣].

لقد قدَّم هنتنجتون صورةً مروِّعة للعالم في ٢٠١٠م توقَّع فيها الآتي: «تتعاظم ثقة الصين بنفسها فتعلن أنَّها سوف تفرض سيطرتها على البحر بكامله، وعلى كلِّ ما كانت تُطالب بالسيادة عليه، الفيتناميُّون يُقاومون، وينشب القتال بين السفن الحربيَّة الصينيَّة والفيتناميَّة، الصينيُّون المتلهِّفون للانتقام بسبب الإذلال الذي لحق بهم في سنة ١٩٧٩م يقومون باحتلال فيتنام، الفيتناميُّون يطلبون المساعدة من أميركا. الصينيُّون يُحَذِّرون الولايات المتحدة لكي تظلَّ بعيدة. اليابان ودول آسيا الأخرى يرتعدون خوفًا. الولايات المتحدة تُعلن أنَّها لن تقبل أن تقهر الصينُ فيتنامَ، وتُطالب بفرض عقوبات اقتصاديَّة على الصين، وتدفع بقوَّاتها المحمولة الباقية إلى بحر الصين الشمالي. الصينيُّون يستنكرون

(١) صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ص٣٦.

(٢) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

(٣) المرجع نفسه.

ذلك، ويعتبرونه انتهاكًا لمياههم الإقليميَّة ويُوَجِّهون ضربات جويَّة للقوَّة الأميركيَّة. جهود السكرتير العام للأمم المتحدة ورئيس وزراء اليابان لوقف إطلاق النار تفشل، وينتشر القتال ليعمَّ مناطق أخرى في آسيا، اليابان تحظر استخدام القواعد الأميركيَّة الموجودة على أراضيها في العمل ضدَّ الصين، ولكن الولايات المتحدة تتجاهل هذا الحظر. اليابان تُعلن حيادها وتقوم بعزل القواعد. الغوَّاصات والطائرات التي تعمل من قواعد في تايوان والبرِّ الرئيس تُنزل خسائر فادحة بالسفن الأميركيَّة وتسهيلاتها في شرق آسيا. في الوقت نفسه تدخل القوَّات البريَّة الصينيَّة هانوي وتحتلُّ أجزاء كبيرة من فيتنام. وحيث إنَّ كلًّا من الصين وفيتنام لديه صواريخ قادرة على توجيه الأسلحة النوويَّة إلى أراضي الآخر يحدث تحفُّظ ضمني، ولا تُستخدم هذه الأسلحة في المراحل الأولى من الحرب، إلَّا إنَّ الخوف من مثل هذه الهجمات موجود في كلا المجتمعين، وهو أقوى في الولايات المتحدة؛ لذا يبدأ الكثير من الأميركيِّين في التساؤل: لماذا يتعرَّضُون لهذا الخطر؟ وما الفرق إذا سيطرت الصين على بحر الصين الجنوبي وفيتنام، أو حتى على جنوب شرق آسيا بالكامل؟[١].

معارضة الحرب قويَّة وبخاصَّة في الولايات المتحدة... وبعد أن يُعَزِّز الصينيُّون انتصاراتهم الأوليَّة في شرق آسيا يبدأ الرأي العام الأميركي في الضغط باتجاه انتهاء الحرب.. إلَّا إنَّ هذه الحرب لها تأثيرٌ في الوقت نفسه على الدول الرئيسة في حضارات أخرى؛ فالهند تنتهز الفرصة التي تُتيحها لها الصين بتقيُّدها بشرق آسيا؛ لكي تشنَّ هجومًا ساحقًا على باكستان، وفي ذهنها تجريد تلك الدولة من قدراتها العسكريَّة النوويَّة والتقليديَّة، الهند تنجح في البداية، ولكن التحالف العسكري بين باكستان وإيران والصين ينشط، وتهرع إيران لمساعدة باكستان بقوَّات عسكريَّة حديثة ومتقدِّمَة. الهند تغوص في مستنقع الحرب مع قوَّات إيرانيَّة وعصابات باكستانيَّة من جماعات إثنيَّة كثيرة مختلفة، كلٌّ من الهند وباكستان يلجأ إلى الدول الإسلاميَّة طلبًا للمساعدة...»[٢].

ويستمرُّ هنتنجتون متوقِّعًا أنَّ الانتصارات الصينيَّة تُثير تحرُّكَات معادية للغرب في العالم الإسلامي فتسقط الحكومات الموالية للغرب في العالم العربي وتركيا تباعًا، ثُمَّ تُؤَدِّي مجموعة هذه التفاعلات إلى هجومٍ عربيٍّ شامل على الكيان الصهيوني الذي يُعتبر الصورة

(١) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

(٢) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

المصغَّرة للولايات المتحدة، ثُمَّ ومع استمرار الانتصارات الصينيَّة سيتحوَّل موقف اليابان من الحياد إلى الانحياز إلى الصين، فتُهاجم القواعد الأميركيَّة التي على أرضها، فما تلبث أن تسحبها أميركا على عجل، ثُمَّ تشتبك السفن الأميركيَّة واليابانيَّة، ولكن روسيا التي يُخيفها التوسُّع الصيني تبدأ في التحرُّك باتجاهِ معادٍ ضدَّ الصين، فتبدأ اشتباكات روسيَّة صينيَّة... وهكذا استمرَّ هتنجتون في التوقُّع حتى أدخل العالم كلَّه في الحرب[1].

هذا الترويع والتفزيع والتنبُّؤ بالصدام الكارثي الكبير مدخل ممتاز لتغطية وتسهيل الزيادة في التسلُّح، وإقناع الشعوب بالحاجة الضروريَّة إليه، وهذا يُؤَدِّي إلى معاناة الشعب وتأثُّر الاقتصاد؛ ولذلك فلا بُدَّ من ممارسة قدرٍ كبيرٍ من التخويف من المستقبل الرهيب.

كما أنَّ التهويل في حجم الأعداء يصنع إنجازًا كبيرًا في لحظة النصر، كما يصنع بطولة للزعماء، ولقد أصبح هذا متجذِّرًا في الثقافة الأميركيَّة؛ فالإعلام والأفلام والروايات والقصص وألعاب الكمبيوتر دائمًا ما تبحث عن عدوٍّ: السوفيت، الصينيِّين، المافيا، العرب. ثُمَّ تخرج من عالم البشر إلى الأعداء في عالم الطيور والحيوانات والحشرات والجراثيم، ثُمَّ تخرج من عالم الأرض إلى عالم الفضاء فتخلق الأعداء القادمين من كواكب أخرى.

ولهذا كان انتفاء العدوِّ شيئًا خطرًا، حتى إنَّ جون كريستوف روفان يقول بعد انهيار الاتحاد السوفيتي: «لقد أُصِبْنَا بخوفٍ شديد، انهيار العدوِّ السوفيتي -الذي كنَّا نعتمد عليه كثيرًا منذ خمسة وأربعين عامًا- أدخل الديمقراطيَّات في كآبةٍ كبيرة». ويبدو أنَّ جيورجي أرباتوف (*Georgiy Arbatov*) وهو مستشار الرئيس السوفيتي جورباتشوف فَهِم هذا حين قال: «نحن نقوم بأمرٍ مروِّع لكم، فنحن نحرمكم من عدوٍّ»[2].

البحث عن عدو:

وإذًا، فلا بُدَّ من البحث عن عدوٍّ، ولقد خلا العالم في هذه اللحظة من عدوٍّ قوي، فليكن ثمَّة عدوٌّ آخر محتمل، ولقد اتَّفق الجميع على أنَّه «الإسلام».

(١) المرجع نفسه.

(٢) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

وصورة الإسلام لدى هنتنجتون يُغَذِّيها -فيما نرى- رافدان؛ الأوَّل: هو التراث الاستشراقي الغربي، والثاني: عقليَّة هنتنجتون نفسه المهتمَّة بالبحث عن الصدام؛ إذ إنه حتى التراث الاستشراقي الغربي حفل بالكثير من الكتابات والدراسات المنصفة والقيِّمة عن الإسلام وتاريخه وحضارته، لكن هذا النوع لم يكن بالذي يُناسب هنتنجتون وهو يكتب عن الصدام، فمارس انتقائيَّته التاريخيَّة ليخرج بالصورة النمطيَّة الدمويَّة المتوحِّشَة عن الإسلام؛ إذ إنَّها الصورة المثلى لكي تُوضع في نظريَّة تتوقَّع الصدام وتتنبَّأ به[١].

ولذا فكثيرًا ما يستشهد هنتنجتون بأقوال برنارد لويس، المستشرق المعروف بتعصُّبِه وميوله الصهيونيَّة، وربَّما كان لويس هو الذي أوحى إلى هنتنجتون بمصطلح صدام الحضارات؛ إذ يقول: «يجب أن يكون واضحًا الآن أنَّنا نُواجه حالة وحركة تتخطَّى بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تُتابعها، وهذا ليس أقلَّ من صدام حضارات، الذي ربَّما كان غير منطقي، ولكنَّه بالتأكيد ردُّ فعلٍ تاريخيٌّ لتنافسٍ قديمٍ ضدَّ تراثنا اليهودي والمسيحي وحاضرنا العلماني وانتشار كلٍّ منهما على مستوى العالم»[٢].

يُصَرِّح هنتنجتون بأنَّ مشكلة الغرب ليست مع الإرهاب الإسلامي؛ بل مع «الإسلام: فهو حضارةٌ مختلفة، شعبها مقتنعٌ بتفوُّق ثقافته وهاجسه ضآلة قوَّته». كما أنَّ مشكلة الإسلام ليست مع المخابرات الأميركيَّة أو الأنظمة الغربيَّة بل مع «الغرب: حضارة مختلفة شعبها مقتنعٌ بعالميَّة ثقافته، ويعتقد أنَّ قوَّته المتفوِّقة -إذا كانت ثقافته متدهورة- تفرض عليه التزامًا بنشر هذه الثقافة في العالم»[٣].

وكما لاحظ بعض الكُتَّاب: «إنّ الغربيين يواصلون تقديم الإسلام على أنه مرادف للأصولية والإرهاب. هذه الكتابات تنطلق من شعور عميق بعداء يكمن في اللاوعي، يصور الإسلام على أنه الجانب الشرير والجاهل في الحضارة الغربية. وتصور هذه الكتابات الغرب على أنه العقل والإسلام على أنه الجسد، الغرب على أنه مذكر والإسلام على أنه مؤنث. وفي المحصلة الأخيرة يبدو الإسلام وكأنه مثير للغضب والهيجان والعنف والإرهاب،

(١) المرجع نفسه.
(٢) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.
(٣) المرجع نفسه.

وكلها غرائز جسدية. وهي تحتاج وفقًا لمفهوم «العصرنة» إلى التدجين. وفي الوقت نفسه يرفض المفكرون الغربيون القبول بشرعية أي فكر أو قيم أو معرفة تصدر عن الإسلام، فهل يمكن التعلُّم من الجسد؟ بهذا المعنى يصبح الإسلام عن حق (الآخر) السيكولوجي للحضارة الغربية. ويجري التعامل معه على هذا الأساس وهو الأساس الذي أقام عليه هنتنجتون نظريته الصدامية مع الحضارة الإسلامية»[١].

ففكرة البحث عن «عدو» فكرة كامنة في فلسفة الحضارة الغربية؛ لأنّ القيم التي تحكمها هي قيم المنفعة واللّذة، ومن ثم فإنّ حركتها لابد أن تقوم على فلسفة الصراع، والصراع يتطلب القوة وبالقوة يكون البقاء للأقوى[٢].

وعند هنتنجتون فإنَّ الصدام والعنف موجودان في طبيعة الإسلام نفسه؛ لأنَّ الإسلام نشأ في قبائل بدويَّة متناحرة، ولأنَّ محمدًا كان قائدًا عسكريًّا ماهرًا، ولأنَّ القرآن لا يحتوي على نهيٍ عن العنف، بل إنَّ تعاليم الإسلام تُنادي بقتل غير المؤمنين به، كما أنَّ الإسلام عقيدةٌ استبداديَّةٌ ترفض الفصل بين الدين والدنيا، وتضع حدًّا بين «دار الإسلام» و«دار الحرب»، ولهذا يُمكن للمسيحيِّين والبوذيِّين والكونفوشيوسيِّين والهندوس أن يتعايشوا معًا بسهولةٍ أكبر من تلك التي يتعايش بها المسلمون مع غيرهم. فهذه الأسباب -وهي من طبيعة الإسلام- تُفَسِّر ميل الإسلام للصدام كما يقول هنتنجتون[٣].

وعلى الرغم من أنَّه لا ينسى أن يَذْكُر أنَّ من بين الأسباب: الاستعمار الغربي، والضعف الإسلامي الذي استغلَّته جماعات غير إسلاميَّة فقامت تجاه المسلمين بمذابح واسعة، وعدم وجود دولة مركزيَّة إسلاميَّة تقوم مقام القائد الذي يتوسَّط في النزاعات.. فإنَّه يعتبر هذه الأسباب ثانويَّة وجانبيَّة.

من المؤسف حقًّا أن تكون هذه هي قناعات المفكِّرين الذين يُؤَثِّرون في مجرى السياسة العالميَّة، وأن يكون هذا هو مستواهم في البحث عن الحقيقة وتحرِّيها من مصادرها، أو حتى من المصادر الأخرى. ولعلَّنا ننصح مثل هؤلاء الذين يعتقدون بالطبيعة الدمويَّة

(١) عبد الله محمد الأمين النعيم: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية - دراسة مقارنة، ص٢٥: ٢٨.

(٢) عبد الله محمد الأمين النعيم: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية - دراسة مقارنة، ص٢٥: ٢٨.

(٣) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

للإسلام بأن يقرأوا كتابًا مثل «الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميَّة»، الذي ألفه المستشرق الإنجليزي المعروف توماس أرنولد.

لقد بذل توماس أرنولد جهدًا عظيمًا في تتبُّع كيفيَّة دخول الإسلام إلى كلِّ بلدٍ دخل إليها، فلم يجد حادثةً واحدةً تقول بالإكراه على الدخول في الإسلام، أو بمحاولة تصفية وإبادة الأقليَّات غير الإسلاميَّة، أو حتى إنهاء الديانات الأخرى في الأرض الإسلاميَّة؛ يقول: «إنَّ الفكرةَ التي شاعت بأنَّ السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدةٌ عن التصديق... إنَّ نظريَّة العقيدة الإسلاميَّة تلتزم التسامح وحريَّة الحياة الدينيَّة لجميع أتباع الديانات الأخرى»[١].

ويقول: «لم نسمع عن أيَّة محاولةٍ مُدَبَّرةٍ لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أيِّ اضطهادٍ مُنظَّمٍ قُصِد منه استئصالُ الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخُطَّتَيْنِ لاكتسحوا المسيحيَّة بتلك السهولة التي أقصى بها (فرديناند وإيزابيلا) دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها (لويس الرابع عشر) المذهب البروتستانتي مذهبًا يُعاقَبُ عليه مُتَّبِعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظلَّ بها اليهود مُبْعَدين عن إنجلترا مدَّة خمسين وثلاثمائة سنة، وكانت الكنائس الشرقيَّة في آسيا قد انعزلت انعزالًا تامًّا عن سائر العالم المسيحي، الذي لم يُوجد في جميع أنحائه أحدٌ يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين؛ ولهذا فإنَّ مجرَّد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طيَّاته الدليل القوي على ما أَقْدَمَتْ عليه سياسة الحكومات الإسلاميَّة بوجهٍ عامٍّ من تسامحٍ نحوهم»[٢].

ولعلَّه كان يردُّ على كلِّ مَنْ يعتبر أنَّ الدمويَّة من طبيعة الإسلام نفسه حين قال: «التسامح إلى أقصى حَدٍّ هو القاعدة المستمدَّة من الأصول الإسلاميَّة»[٣].

ونظرية صدام الحضارات يمكن إجمالها في الآتي:

١ - الديمقراطية نعمة غربية لا يمكن أنْ يتمتع بها المسلمون؛ لأنهم باسمها ينصبون في الحكم الاتجاهات المتطرفة.

(١) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

٢- السلام الدُّولي يجب أنّ يقتصر على الغرب؛ لأنّ انسحابه على العالم الإسلامي يحرم الغرب من بيع السلاح وشفط الاحتياطي من الثروات.

٣- تحديد النسل عملية استعجالية للعالم الإسلامي نظرًا لتزايد المسلمين واختلال التوازن الديمغرافي مع العالم الغربي.

٤- من الحكمة أن يتم دعم وتأييد الجماعات الموالية للمصالح والقيم الغربية في العالم الإسلامي.

٥- تقوية المؤسسات الدُّولية التي تعكس المصالح الغربية وإعطاؤها الشَّرعية والعمل على دفع الدول غير الغربية للانضواء تحت جناح هذه المؤسسات.

٦- مزيد من تكريس الحضارة اليهودية المسيحية ذات المبادئ المشتركة بإزاء الحضارة الإسلامية[1].

(١) عبد الله محمد الأمين النعيم: الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية - دراسة مقارنة، ص١٢٣.

خامسًا

النموذج الثالث: نظرية صدام الحضارات ونهايتهاعند فرانسيس فوكوياما (ولد ٢٧ أكتوبر ١٩٥٢)

فرانسيس فوكوياما ونظرية نهاية التاريخ أو نهاية الحضارات:

كان من بين من فسروا التاريخ وظهوره الشهير فرانسيس فوكوياما، وقد عرفت نظريته بنهاية التاريخ وقد بنى هذه النظرية على ما عرفه الفيلسوف هيجل، تلك النظرية التي تقول أن التاريخ الإنساني يتجه قدما نحو النهاية، حتى يجد الاستقرار ذلك الاستقرار الذي يفسر طبيعة الأنظمة الاقتصادية والديموقراطية، والنظام الديموقراطي هو ذلك النظام الذي يعترف بكرامة الإنسان وقيمته الإنسانية، أما عن النظام الاقتصادي الحر فهو ذلك النظام الذي يعمل على تلبية احتياجات الإنسان المادية، وعلى الرغم من امكانيته في تلبية حاجات الإنسان، إلا أنه ليس الأمر الكافي أبدًا للإنسان ليحصل على السعادة.

حقًا، لقد أدى سقوط جدار برلين إلى إشعال نقاشات وسجالات ما كان لها أن تظهر، ولقد سمح سقوط هذا الجدار إلى الافصاح عن «المكبوتات» إذ تم طرح أسئلة تنتمي لصميم الفلسفة السياسية من قبيل ما هو النظام الأفضل؟ فمن المعلوم أن أفلاطون كان قد تطرق إلى هذا الأمر في جمهوريته. إلا أن هذا الإشكال بدأ يعاد طرحه بعد هذا الحدث البارز. لقد تعالت أصوات المثقفين وكتاباتهم للإجابة عن هذا التساؤل، ولعل كتاب «فرانسيس فوكوياما» «نهاية التاريخ والإنسان الأخير *The End of History and the Last Man*» يؤكد صدق قولنا. فقد ذهب «فوكوياما» إلى أن سقوط الاتحاد السوفياتي، إنما هو مؤشر على انتصار النموذج الليبرالي الديمقراطي باعتباره هو النموذج الأفضل، وبذلك أوصُد باب التاريخ وأدى إلى نهايته الأبدية التي لن يبرز في أفقها أي مؤشر جديد، وقد لاحظ «فوكوياما» أن التاريخ يقود بطريقة أو بأخرى -يقود الإنسان إلى الديمقراطية الحرة - ستفيدنا

بذلك من التفسير الذي قدمه «كوجيف لهيغل» حول مسألة نهاية التاريخ[١].

ويمكن أن نوجز تصور فوكوياما في كلمات معدودات، وهي أن النظام الأصلح إن لم نقل الأخير، هو النظام الليبرالي الديمقراطي القائم على احترام الفرد وتشجيع المبادرة الحرة، إن ما يهمنا من أطروحة «فوكوياما» هو أن الفلسفة السياسية عادت لطرح مسألة النظام الأفضل هذا بالإضافة إلى ظهور إشكاليات أخرى كمشكلة الحضارات وقيامها وانهيارها[٢].

فوكوياما وهنتنجتون:

نظريَّتا فوكوياما وهنتنجتون، قد تبدوان متعارضتين للوهلة الأولى، إلَّا إنَّهما في الجذور وفي الثمار واحد؛ فجذورهما غربيَّة متكبِّرة، ترى في نفسها المركزيَّة العالمية، والقطب المتفوِّق الذي يُمَثِّل أفضل ما أبدع الإنسان في كلِّ تاريخه وفي كلِّ مساحة الأرض شرقًا وغربًا، وبأنَّ كلَّ الحضارات الأخرى لا تبلغ أن تصل إلى القمَّة التي وصلت إليها الحضارة الغربيَّة، وبأنَّ كلَّ الأفكار المؤثِّرة في تاريخ البشريَّة والصالحة للحياة إنَّما نشأت في العالم الغربي[٣].

ثُمَّ يتفقان في الثمار، أو في النتائج، فكلا النظريَّتين يتوصَّل في نهاية الأمر إلى أنَّ ثمَّة «نحن» و«الآخرين الأعداء»، وأنَّه لا بُدَّ من امتلاك القوَّة الكافية والتدخُّل في شئون هؤلاء الآخرين؛ لمنع وصول أحدٍ منهم إلى أن يُهَدِّد مصالحنا، دون أن يتوقَّف أمام هذه الكلمة الفضفاضة المطاطة «مصالح»، ودون أن يُناقش ما إذا كانت هذه المصالح عادلة أم ظالمة؟ مُضِرَّة بشئون الآخرين أم لا؟ هل يُمكن أن تتمَّ بالاتفاق والتعاون وتحقيق المصالح المشتركة للأطراف المعنيَّة، أم لا بُدَّ أن تُؤخذ بأقلِّ التكاليف أو بالقوَّة والقهر؟

فمثلما قال فوكوياما من قبل: «سيظلُّ استخدام القوَّة هو الحكم النهائي في العلاقات». يقول هنتنجتون بأنَّه لا بُدَّ من «كبح القوَّة العسكريَّة التقليديَّة وغير التقليديَّة للدول الإسلاميَّة

(١) انظر رسالتنا للماجستير: جميل أبو العباس زكير: فلسفة السياسة عند ليو شتراوس، إشراف، محمد السيد، رسالة ماجستير (غير منشورة)، ٢٠١٤، ص١٠٩.

(٢) انظر: فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين،القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص٢٥:٢٨.

(٣) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

والصينيَّة»[١].

يعالج أستاذنا الدكتور بهاء درويش من خلال مقالته عن سمير أمين محاولة استقطاب الحضارة الغربية لمركزية العالم ومحاولتها الدائبة للهيمنة عليه فيقول:

«في واحد من أهم كتبه، وهو كتاب «المركزية الأوروبية» الذي ظهر أول ما ظهر باللغة الفرنسية ثم ترجم إلى العربية ليظهر عام ١٩٨٨ حاملًا العنوان «نحو نظرية للثقافة»، انتقد سمير أمين ما أسماه «التمركز الأوربي». عنا به الادعاء بأن هناك استمرارية تاريخية تمتد من اليونان القديم ثم روما إلى القرون الوسطى الإقطاعية ثم الرأسمالية المعاصرة. هذه الاستمرارية تبرر القول بأن أوروبا ذات وحدة ثقافية واحدة يتصف أبناؤها بسمات مشتركة هي العقلانية في مقابل شرق اخترعوه لم يتجاوز أهله حدود الميتافيزيقا.. رفض أمين هذه الأيديولوجيا لعدة أسباب.. يمكن ايجازها على النحو التالي:

أولًا: يتضمن هذا التفسير قطع العلاقة بين اليونان القديم والبيئة التي نما فيها وهي بالتحديد بيئة «شرقية» نسب فيها بعض قدماء الإغريق لأنفسهم أسلافًا مصريين أو أنهم على الأقل تتلمذوا على يد قدماء المصريين والفينيقيين، كما أن إلحاق الهلينية «بالغرب الأوروبي» المزعوم إلحاق تعسفي،

ثانيًا: في تأكيد الوحدة الثقافية الأوربية المزعومة عنصرية واضحة. تكبير دور المسيحية وإلحاقها هي الأخرى - بأسلوب تعسفي- للاستمرارية الأوربية المزعومة وجعل هذا العنصر أحد أهم العناصر المفسرة للوحدة الثقافية الأوربية رغم أن نشأتها كانت نشأة شرقية. كيف يمكن عد التاريخ الثقافي الأوروبي متسلسلا في ظل وجود خمسة عشر قرنًا تفصل النهضة عن اليونان القديم؟[٢].

(١) راغب السرجاني: نظرية صدام الحضارات.

(٢) بهاء درويش: سمير أمين: كتفان حملا هموم الوطن من الحل الماركسي إلى الحل الديموقراطي، جريدة الأهرام، العدد ٤٨٤٦٥، ١٦ / ٠٨ / ٢٠١٩.